

# قندیل ثابت

فقط عند توہمکے باجتماع  
السما والارض

إسلام علی

# قندیل ثابت

رواية قصيرة

"فقط عند توهمك باجتماع السماء والأرض"

تأليف: إسلام عسل

## 1- قنديل ثابت

إن تأملتها من السماء، قد تظن أن النجوم والكواكب اتخذت من الأرض أفلاكاً جدد، وإن تجولت حولها، انتابتك القشعريرة والشك، لا تدري من صفاء نورها ويريقها، هل تمشي على الأرض أم تخلق في السماء. تلك القناديل التي كان الناس يولدون فيها، فمنهم من يمكث فيها طول عمره، ومنهم من يتركها ويعود إليها، ومنهم من لا يعود إليها أبداً، فهي أرحامهم التي خلقوا فيها ولا تنقطع صلتهم بها أبداً مهما طالّت مدة هجرهم لها.

كانت القناديل ملاذ الأطفال ومنازلهم، تعكس فطرتهم النقية في أجمل صورةٍ من الجمال والضياء، ولكن كلما كبر الأطفال وكبرت آفاقهم ونمت غرائزهم، كانت القناديل عرضةً للتغير، من حيث نورها أو هيكلها، وعلى حسب حدة استجابتهم لتلك الغرائز والإرادات الجديدة، كان التغير. ولكن لحسن حظهم لم يكن هذا التغير دائماً، بل كان قابلاً للانعكاس. للقناديل أسرارٌ وفوائد لا يتعلمها إلا من زادت مقاومته في الاستجابة لتلك الغرائز، فكلما ازدادت تلك المقاومة، انكشفت أسرارها لصاحبها، وزاد تعلقه بها، وتعمّق التعرف على أهم شيءٍ صانعها، وصانع كل شيءٍ.

لم يعرف ثابت طيلة حياته القصيرة -وهو ابن السنوات السبع- غير قنديله، يبيت فيه ولا يفارقه، ولكن ليست كل القناديل على نفس الدرجة من الجمال والبهاء، فهناك قناديل خفت نورها درجة، وهناك ما خفت نورها كله، وهناك ما يحتاج إلى ترميمٍ ولم يتبق منه إلا هيكلًا، وهناك ما هو أقبحها، أو تحول إلى بقايا أطلالٍ أو رماد وقد سُوي بالأرض. وبالرغم من حداثة سنه، إلا أن ثابت انزعج من منظر تلك القناديل مفتخراً بقنديله، قائلاً لنفسه ببراءة الأطفال: "من المحال أن يتحول قنديلي مثل تلك القناديل يوماً ما".

كان في خراب هذه القناديل حكمة؛ وهو التوازن الكوني الذي يقوم عليه كل شيء، والذي بدونه لن يكون للقناديل غرض في الوجود. كانت القوى الدافعة لخراب القناديل متمثلة إما في عوالم أخرى تتغذى على خراب القناديل، أو في أشخاص يتلذذون بخراب القناديل ويسعون في أرجاءها فساداً، سواء لمصالحهم الشخصية أو لمجرد حب الأذى والسيطرة، ومن هؤلاء الأشخاص كان (صادق).

بعباءة ناصعة البياض ووقارٍ مبهرج وخيلاءٍ ناطقٍ بالكبرياء، يسير بين الممرات التي تصل القناديل بعضها ببعض، يشاهده ثابت يومياً يجتمع بالرجال والنساء وقت خروجهم من القناديل لقضاء واجبات المعيشة اليومية من زرع وحصاد، يلتفون حوله في إنصات وخشوع، يصطفون أمامه لا تتحرك شفاهم وكأنهم ينصتون إلى صوت صفير بلبلٍ جذاب، يكاد من عذوبة صوته أن يتسلقوا الشجرة تلبيةً لنداءه. دائماً ما تتسع أعينهم من فرط اندماجهم، ولا تفارق الرجل حتى يبدأ هو بالانصراف. لاحظ ثابت أيضاً أن ثمة فئة قليلة من الناس يتجنبونه تجنب الكلب المُعدي، ولا يعطونه فرصة بأن يقربهم. أثار ذلك التناقض بين الفئتين في التعامل مع الرجل فضول ثابت الطفولي ورغبته في التقصي وراءه، إلا أن الرجل لم يبدِ أي اهتمام للتحدث مع الأطفال أو المجانين.

ها هو ميعاد جولة صادق اليومية، يكلم الرجال والنساء بين حوار القناديل، ويراقب الأطفال عن كثب، ماذا يحبون ويكرهون، كيف يتفاعلون مع الآخرين، وبالأخص، عند الغضب، فتلك الدقائق القليلة عند الغضب قد تكشف له الكثير عن طبيعة وتركيبه هؤلاء الصغار، حتى في تلك السن المبكرة من أعمارهم. لصادق قدرات غير عادية في الإقناع والجذب، فلا تمرّ ساعات على من ينصت له حتى تأخذه نوبة من الاشتياق لرؤيته والاستماع له مرة أخرى. نشوته الوحيدة، أن يُحب ويُقاد له، بقوة منطقته.. أو بخداعه. لكنه دائم التأسف على ضعف سلطانه على قلوبهم في أن يحبوه، أو أن يكرهوا كل ما يقف بينه وبينهم، فلو كان الأمر بيده، لاقتلع قلوبهم من بين صدورهم، وقذف فيها حبه جملة واحدة.

## 2- حوار مع صادق

بدأت بوادر العقل تظهر على ثابت، ولم يعد ذلك الطفل الساذج الذي لا تحكمه إلا فطرته، فكلمها ثما عقله، نمت غرائزه ومتطلباته الجسدية، وكأن ذلك هو ثمن عقله الموهوب، أو جاء العقل كسلاح ضد غرائزه الجديدة. لكنه شعر أن لا مكان لقنديله وسط نفسه الجديدة، فأصبح الملل يمتلكه بسبب طاقته الجديدة الخاملة، ونفسه التي لا تقوم بدورها الكامل. وأدرك أن قنديله لن يسد احتياج تلك النفس الجديدة، فانتابه الفضول والشك في احتمالية وجود مكان آخر يختبر فيه تلك القوة والإرادة الجديدتين بداخله.

خرج ثابت من قنديله صباح يوم، يجمع قوت يومه من الحقائق المحيطة كأني مقيم، وإذ به يلح صادق وهو يقوم بجولته اليومية، مراقباً أحوال الناس كراخ يتقعد رعيته. وبلا تردد أو تفكير اندفع ثابت إليه، لكنه شعر بسذاجة وانعدام ذكاء في قراره المتهور واللاإرادي. وعند منتصف الطريق بينهما، كاد أن يتراجع لولا أن صادق استشعر حركاته ونياته بطرف عينيه، فالتفت إليه ورماه بابتسامته المطمئنة ودعوته الأبوية، فانشرح صدر ثابت وقطع نصف الطريق الآخر إليه.

وقف ثابت أمامه لوهلة لا يتكلم ولا يتراجع، فهو لا يعلم سبب مجيئه إليه، ولا يعلم شيئاً عن ذلك الرجل. ولكن مجرد جاذبيته وغموضه هي التي أتت به، وفجأة تكلم ثابت وتساءل عن أكثر الأسئلة غرابة:  
- إلى أين؟!.

لم يستغرب صادق من سؤاله، ولكنه تأفف وهو يقلب عينيه، وكأنها ليست المرة الأولى التي يمر ذلك السؤال على مسامعه، ثم رد بكل ثقة وقد ملأ الحب عينيه:

- يا بني، إن في سؤالك حيرة وتشتيًا لنفسك القوية، وقعًا لطاقتك غير المتناهية، بل الصواب أن تسأل بكيف، كيف تكون، وكيف تستخدم تلك النفس التي بين جنبيك فتسخرها لك، وبدورها تسخر كل من لا يؤمن بك تحت إمرتك وسلطانك.

شعر ثابت بمزيج من الراحة وعدم الاكتفاء الكامل بتلك الإجابة. اشتعلت في صدره حرب صامته، فجزء منه يرى مثالية تلك الإجابة، وجزء آخر موقن بخلل وسطحية ذلك الرد. لكنه استسلم لمثاليته، ولفصاحته وسلاسته في عرض الإجابة، ولضعف الصوت الذي يناديه بداخله بسطحية منطقته.

انصرف صادق بعد رؤية تأثير رده على ثابت، ثم ناداه من بعيد:

- انخرط في الحياة، فهي منك وأنت منها، إياك والاستجابة إلى أصوات الجبن والخنوع بداخلك! ستجدني دائماً معك، بجانبك، وخلف ظهرك.

كانت تلك الكلمات الأخيرة بمثابة الماء الذي أطفأ أي شرارة بداخل ثابت قد تدفعه إلى اتخاذ أي قرار يخالف رأي صادق، وعدم السعي لتجربة نفسه الجديدة.

لم يفهم ثابت سر ذلك التأثير القوي عليه بعد ذلك الحوار الموجز والسطحي، ولكن لصادق قدرة على وضع نفسه مكان الآخرين، ثم يخاطبهم وكأنه يخاطب نفسه بعد أن يشعر بما يشعرون به من احتياجات، فيتشرب صفاتهم الحميدة والخبيثة ليأتي كلامه لهم على حسب صفاتهم الحميدة، فيسعون وراءها ليؤكدوا وجودها لأنفسهم، وينسون بها صفاتهم الذميمة التي يهربون منها، فيزيد اطمئنانهم له، ومن ثم يأتونه مجدداً ليسمعوا المزيد.

### 3- عقل

شُحِنَ قلب ثابت بالإقبال واللهفة على حياة جديدة، بعد أن تلقى الكلمات المشجعة من صادق، التي مازالت ترن في أذنيه وتهز قلبه. وبينما هو غارق في هذه الحالة من الهيام، إذ به يتساءل:

- من أين لي أن أبدأ؟

تذكر نصيحة صادق، فسرعان ما بدل سؤاله إلى الكيفية، لكنه شَرَدَ بذهنه مستنكراً:

- ولكن كيف ماذا؟! كيف أُلبي نداء إرادتي الجديدة؟! كيف أكون قوياً أو عالماً ولا ينافسني مخلوق؟ أم كيف أقضي أيامي وساعاتي دون أن يتخللني ضيق أو ملل؟ الكيفيات كثيرة لا تحصى، فمن أين أبدأ؟ مؤكّد أن لكل شيء بداية.

وسط بحر تساؤلاته وأمواج أفكاره المتلاطمة، تنأهى إلى سمعه ضحكات وقهقهات لا يخالطها هم ولا كدر، فانطلق إلى مصدر الصوت علي يقين أن هناك سيجد أول الخيط المؤدّي إلى تلك البداية.

كان الشاب الضاحك يتحدث إلى شابين آخرين، واضعاً كلتا يديه على كتفيهما، وتجلّت نبرة الإرشاد والتوجيه في نبرة صوته وكلامه الموجه إلى الشابين الذين لم يتوقفا عن هز رؤوسهما. تيقن ثابت من علو منزلة ذلك الشاب، فانتظر بعيداً حتى انصرف صاحباه:

- نحن حقاً ممتنون لك يا عقل، لقد فعلتها مرة أخرى.

أقبل ثابت كالظمان الذي يلهث صوب بئر مجهولة لا يقين من طهارة مائها، وإذ بعقل يحتضنه بقوة دون كلام أو سلام، شعر معها أن عقل قد فرض سيطرةً كاملةً على وجدانه، وكأنه تاه شريداً بين ذراعيه، متوغلاً في كل تساؤلاته الروحية. ثم أمسك عقل بيده وانطلقاً معاً وهو يردد:

- نَمَّ يا صديقي، أنت الآن في يدِ أمينة.

فقد ثابت السيطرة على تفكيره وجوارحه، وانطلق به عقل إلى مكانٍ لا يعلم عنه شيئاً، حتى وصلاً إلى باب عملاق من الخشب، عليه نقوش بارزة ذهبية تمثل أشخاصاً بأسمائهم وصورهم، وقبل أن يتساءل ثابت عن تلك النقوش، أجابه عقل:

- هؤلاء هم من نالوا شرف نقش صورهم وأسمائهم على باب (الحلبة) بسبب سيرهم العظيمة، وإن أردت نيل ذلك الشرف يوماً ما، فلا تعارضني ولا تجادلني أبداً.

تسمّرت عيون ثابت على اسم عقل منقوشاً على الباب بجانب صورته، مما زاده في قلبه إجلالاً وتعظيماً، ورغبة قوية في أن يكون له مكان على ذلك الباب يوماً، حتى قبل أن يعلم ما وراءه.

كان المكان بالداخل بسيطاً لكنّه جذاب، أطيافٌ من الضوء بألوان مختلفة تهتز في الأفق وفي السماء، والناس يشاهدونها وهم في أعلى درجات النشوة والسكر، أما على الأرض فكانت هناك خيم منتشرة في أرجاء الحلبة بأحجام مختلفة.

- ما هذا المكان يا عقل؟ (هكذا أفصح ثابت عن ما في لسانه في ذهول!)

أجاب عقل:

تلك الحلبة ستجعلك ناسياً كل ما مضى، غير مبالي بما هو آتٍ. ولكن هناك قانوناً واحداً يجب عليك اتباعه، وإلا مصيرك الطرد.

تساءل ثابت عن ذلك القانون وهو متشوق إلى معرفته، فأجابه عقل:

- إن توهمت يوماً أنك مختلف عن هؤلاء الأشخاص، فإياك أن تُشعر أحداً بذلك الاختلاف، الكل واحد هنا، أنت منهم وهم منك.



هز ثابت رأسه كدليل على الانقياد والطاعة.

كانت للحلبة سحرٌ بالغ الفتنة، يتمثل هذا السحر في التنوع؛ إذ للأطياف أشكال وألوان لا حصر لها، والناس داخل أسوارها أنواع وأجناس كل حسب هدفه وغايته، وللخيمات في أرجاءها أجام وأشكال مختلفة تخدم أهلها وتساعدهم على البقاء فيها، وإزاحة كل ما يحول بينهم وبينها، والتصدي لنداء أرواحهم، أو أي محاولة منهم للخروج منها والعودة إلى قناديلهم، وإلا فلن يكون هناك سبب لبقاء الحلبة ويصبح الفناء مصيرها.

#### 4- الحلبة

كانت أكبر خيمة قريبةً من باب الحلبة، يقف أمامها طابور طويل، وعلى مدخل الخيمة لافتة نُقِش عليها (مفتاح القوة). التفت ثابت إلى عقل يسأله عن ماهية تلك الخيمة، فلم يجبه إلا بـ "اقرأ اللافتة".

لم يهتم ثابت بما يوجد داخل الخيمة، فانصرف وحده متوغلاً داخل الحلبة، وبدأت تغريه وتثير فضوله نشوة المتفرجين على الأطياف التي في السماء، فحاول بدوره أن يشاهدها ويستمتع هو الآخر بها، ولكنه لم ينتش مثلهم، ولم يرَ إلا ألواناً مختلطة لا معنى لها أو مدلول، فكانت خيالات قنديله تراوده وتسبب له ذلك التشويش، وتعترض استمتاعه بالأطياف السماوية.

لم يتعلم حتى الآن سر قنديله وعلاقته بالحلبة وبنفسه، ولماذا يؤثر ذلك على رؤيته للأطياف، ولماذا لا يستمتع بها كأغلب الناس. ظن ثابت أنه ضعيف لا يناسبه هذا المكان، فقرر الانسحاب والرجوع إلى قنديله. توجه عائداً إلى الباب، ف وقعت عيناه للمرة الثانية على تلك الخيمة ولافتتها، فعزم على الدخول بلا أي تفكير.

وقف ثابت في الطابور على مدخل الخيمة يتأمل أحوال المنتظرين، وإذ يتفاجأ أنهم جميعاً يشاركونه نظرة التردد والحيرة ذاتها، وكأنه يسمع صدى صراعه بداخلهم. اقترب ثابت من باب الخيمة الذي وقفت عليه فتاتان مليحتان لم يرَ في جمالهما مثيلاً، تزين خلفهم ستار أصفر مرصع بأحجار كريمة، ونقوش غير مفهومة تجذب الانتباه، رغم عدم وضوح مغزاها، ولعلها هي التي زادت الفتاتين ألقاً وإبهاراً. تبسمت الفتاتان لثابت بينما كن يسحبان الستار، مما زلزل قلبه زلزالاً يتشوق لرؤية ما وراء كل ذلك الجمال، ثم مضى كالسكران.

داخل الخيمة، عمّ الظلام أرجاء المكان إلا شعاعاً من ضوء خافت صدر من شاشة كبيرة ملأت عرض الخيمة أمامها تماثيل مصفوفة. وما إن اقترب ثابت من الشاشة شيئاً فشيئاً، حتى تبين له أن هذه التماثيل ما كانت سوى أناس مثله يشاهدون ما يعرض على الشاشة، وأعينهم لا تطرف لحظة. لم يفهم ثابت سر تلك البلاهة التي على غطت وجوههم، وأيقن أنه حتماً مختلف، ولن يصل إلى هذه الدرجة من السذاجة، وما إن وجه بصره إلى شاشة العرض من باب الفضول لمعرفة سبب تسمر هؤلاء الناس، فإذا هو مثلهم تماماً، هو منهم .. وهم منه.

## 5- مفتاح القوة

كان عرض الشاشة مقسماً إلى ثلاثة أجزاء: أما الجزء الأول فعنوانه (الضاحكون)، وكان أساسه الألوان المنسجمة مع طرب مبتهج. كانت المشاهد ممزوجة بهذين العاملين مع عرض حياة بعض النماذج في الحلبة في أحسن ما يكون من الهيئة والسعادة، حتى إنَّ ثابت رغب في التسلل إلى أرواحهم ليحسدهم على ما هم فيه. هؤلاء الذين اكتفوا بالعكوف على الأطياف السماوية التي لم يفهمها ثابت بعد، ولم يسعوا إلى سلطة أو منزلة.

شعر ثابت بضرورة أن يكون ضمن هؤلاء وإلا فلا عيش، فهل هناك ما هو أروح وأهدى للجسد والنفس من أن تكون منتشياً على مدار الساعة واليوم، لا تبال بالغد ولا تفكر بالماضي؟ هؤلاء هم الضاحكون، وهم عصب الحلبة وأغلب أهلها، وأسهل درجاتها سهولةً في الوصول، فما عليهم إلا قطع صلتهم بالقناديل ومخالطة أشباههم على قدر الإمكان وعدم التفكير في احتمالات المستقبل أو عواقب الحاضر.

وأما الجزء الثاني من العرض فكان بعنوان (المندوبون)، ولكن هذا العرض كان بألوان داكنة وطرب بطيء يوحي بالجدية والرغبة، على عكس العرض السابق. كانت هؤلاء النماذج المعروضة أقل ضحكاً وأكثر وقاراً. ومن ضمن هؤلاء كان عقل. تذكر ثابت النقوش على باب الحلبة ورغبته بمكان مخصص له على ذلك الباب، فزاد العرض من رغبته. اكتفى أكثر الناس بمنزلة الضاحكين لعدم ثقتهم بقدراتهم ليُخصَّص لهم مكان وسط المندوبين. أما المندوبون، فهم الذين علموا قليلاً من أسرار العلاقة بين القناديل والحلبة والذين يحافظون على بقاءها، فهم حراسها، ولذلك كان لهم شرف النقوش على مدخل الحلبة.

كانت عزيمة ثابت وتركيبته التنافسية محرّكاً وسبب رغبته في أن يكون مندوباً مرموقاً في الحلبة، وأن ينظر الناس له بعلو وتقدير حتى وإن لم يؤمن بالحلبة وأهدافها. ولكن بالرغم من شغفه بذلك الهدف، إلا أن إقدامه وسعيه كان

ضعيفاً؛ لتردده وعدم ثقته الكاملة في قدراته، والهروب من اتخاذ أي قرار على أرض الواقع يقربه من تلك المنزلّة، فاكتمى في الوقت الراهن بأن يكون مجرد ضاحك.

أما الجزء الثالث والأخير من العرض، فكان يتناول نماذج تركوا الحلبة بإرادتهم أو طردوا منها لإخلاقهم بشرطٍ أو أكثر من الشروط التي مُليت عليهم من المندوبين المسؤولين عنهم، فهؤلاء هم الذين رجعوا إلى قناديلهم وتركوا الحلبة. كان العرض ساخرًا كعرض كرتوني يُظهر هؤلاء في أكثر الصور سذاجة وحماقة، لدرجة أن ثابت تمنى الموت على أن يظهر في ذلك العرض يومًا ما.

انتهت خيالات قنديل ثابت بانتهاء العرض، وخرج الناس بصورةٍ غير التي دخلوا بها، منتشرين كالنمل في أرجاء الحلبة وفي وسطهم ثابت، وقد تلاشت الحيرة من قلبه، وهوى شعر بقوة قراره الجديد ناحية هدف واحد .. الحلبة.

## 6- الأطياف

تحولت الحلبة في عيني ثابت من مكانٍ موحش غير مفهوم إلى أجمل ما يكون، وكأنه في أحضان فتاة أجمل من فتاتي الخيمة. بدأ يتجول في ممراتها وهو يشعر بالألفة، بعد أن اقتلعت خيالات قنديله من قلبه، وكأنه هو والخلق على مركبٍ واحد تسير صوبَ مكانٍ واحدٍ بكامل رضاهم وتوافقهم. بدأ يرنو ببصره إلى الأطياف السماوية المحاطة حول الحلبة، وإذ بدت له غير ظهورها الأول له، فهي الآن ليست بالنسبة له مجرد أنوار ساذجة بلا معنى، بل أكثر من ذلك بكثير.

كان (الضاحكون) يتجولون في الحلبة بين حالتين، إما شاخصين أبصارهم إلى تلك الأطياف، وإما متسامرين بعشقتهم لها وبما وجدوا فيها، وكلهم يتساوون في الضحك ودرجة الاستمتاع، ولكن ما هي حقيقة تلك الأطياف؟!

كاد لعاب ثاب أن يسيل عندما نظر إلى هذه الأطياف؛ جسدت له رغباته الدفينة التي حتى لم يعلم عنها شيئاً، عكست له صورةً عميقة الأثر لغرائزه بصورةٍ تفوق قدرته على التخيل. بعض هذه الأطياف غرائزية مادية كالجنس والمال، وعندها استقرت الأغلبية؛ لغلبة الطبيعة الحيوانية لديهم. ومنها أطياف لا تجد عندها إلا قلة من الناس، وتلك التي وجد ثابت عندها كمال لذته، أطياف القوة والسيطرة. كان يتسمر أمامها يومياً، ويحدق فيها بعينٍ تلمع ألماً وانتشاءً، فتتشكل أمامه صورةً لحياته المستقبلية المحتملة، بأن يصير في مكانة عقل، بل ربما يفوقه ويزيحه من طريقه تماماً، ويصبح من أقوى المندوبين في الحلبة.

لم تكن الأطياف مجرد عرضٍ لرغبات كل إنسان وأشواقه، ولكنها أيضاً كانت تستمد الطاقة من مصدرٍ غير معروف لأحد إلا المندوبين، مما يجعلها تخترق قلوب المشاهدين، وتؤثر عليهم، وبالتالي تتحول إلى عشق يلهث الجميع وراءه لتحقيقه، وإن لم يتحقق، فلا ينقطع السعي إليه أبداً.

زادت أطياف القوة والسيطرة من ثقة ثابت في نفسه، وبدلاً من مكوثه عند الأطياف الغرائزية، أراد أن يتشبع بأطياف القوة ويلبي احتياجاته بالاستمتاع عندها، وأحس بقرب حلمه في القوة والسيطرة على الضاحكين بلا أي علم عن عواقب ذلك على نفسه أو منطقة القناديل، ولكن حب الظهور الذي تملكه، أعماه عن كل شيء إلا عن تضحية يقدمها لتحقيق ذلك الهدف.

استرق ثابت النظر إلى عقل وهو يتحدث إلى أحد المستجدين قرب باب الحلبة، فانطلق إليه مسرعاً ليسأله عن سر تلك الأطياف ومن أين تأتي، فرد عليه بنبذة غضبٍ متعالية:

- هذا سرٌّ لا يعلمه إلا المندوبون، وأشك أن تكون منهم يوماً ما.

تمكّن الحقد والكراهية من ثابت تجاه عقل؛ بسبب عدم تقديره لقيمته وقدراته، ولكنه كتم ذلك الحقد في نفسه لهيبة عقل التي لها الغلبة على نفسه، حتى إن كلامه وسوس في نفسه الضعيفة، وتسرب لها شعوراً باليأس، كما لو أن شغفه بأن يصبح مندوباً سرعان ما آل إلى الفتور والدعة، ومن ثم أصابه الفتور قليلاً من الحلبة، وعادت له خيالات قنديله مرةً أخرى، فقرر زيارته. لكنه لا يعلم السبب الحقيقي وراء هذه الزيارة، أهو الشوق لقنديله أم مجرد الطمع؟ الطمع بأن يملك كل شيء، الحلبة والقنديل؟

## 7- الهروب

ربما قد يتحمل صادق أي شيء، وقد يمتص كبرياؤه أي قدر من التنازل، إلا أن يصده أحدٌ ولا يعيره أي اهتمام، فهذا ينخر في كبرياهه ويشعره بالضعف، وفي نفس الوقت يدفعه إلى الإصرار والعناد، الإصرار على السيطرة والتمكّن من النفس بتغيير أفكارها ومعتقداتها. فهذا كان هدفه وقمة نشوته. لم يكن يبالي بالقناديل وبريقها وتوهجها، ولا بالحلبة وأطيافها والسلطة على أفرادها. أما أسعد لحظات حياته هي التي يتحول فيها قنديلٌ إلى خراب ويهجره أهله، أو يتحول ضاحكٌ في الحلبة إلى مندوبٍ متغطرس، فيزداد هجراناً لقنديله ويشد تأثيره على أصحاب القناديل.

شاكر، أحد الذين نالوا قدراً من كبرياء صادق وزادوا من إصراره ومثابرته، كان يتجنبه بكل ما أوتي من قوة، وكلما اعترض صادق طريقه وهو يقوم بجولته، سارع إلى قنديله لا يفارقه، ليس خوفاً منه، ولكن اعترافاً بضعفه، ولبصيرته بطبيعته المتقلبة، وعدم قدرته على رؤية الصواب أحياناً. فهو يعلم حدود معتقداته وإيمانه الذي مهما بلغ من الثبات واليقين، إلا أنه ينقص في نفسه ويحط من قدراتها، بحكم طبيعتها التي تركز للدعة والراحة، وعدم المقاومة.

لم يتوقف صادق عن مراقبه قنديل شاكر ليلاً ونهاراً، إلا أنه في ليلة من تلك الليالي، بدا له أن قنديله خفت نوره قليلاً، فكث عنده انتظاراً لخروج شاكر للقيام بمعاشه وجمع قوت يومه. وما إن رآه شاكر حتى أسرع عائداً إلى قنديله، ولكنه تردد ولم يكمل مشواره لقنديله عندما جهر صادق بصوته:

- أنا أعلم أنك سمعت عن الحلبة، ألم يحن الوقت أن تلي نداء فضولك، وتذهب إليها لتعاین ما قد سمعت عنه؟



وسبب الضوء الخافت الصادر من قنديل شاكر، أيقن صادق أن هناك حتمًا بدايات أفكار لديه تدور حول الذهاب إلى الحلبة، ولكن شاكر هرب منه عائدًا إلى قنديله، ولم يعطه الفرصة ليتدخل إلى نفسه ومنطقه.

كان شاكر من القلائل الذين اختاروا البقاء في قناديلهم عند وصولهم سن البلوغ، ولم يستجيبوا لشهوات أجسادهم الفانية، أولئك الذين عرفوا بعضًا من أسرارها وعلاقتها بالحلبة، وآثروا فطرتهم على أجسادهم، ولكن يبدو أن الحرب لم تنته بعد!

لشاكر قنديلٌ من أبهج القناديل، وما إن رجع إليه هروبًا من صادق، حتى بدأ يعود أكثر بهجة عما كان من قبل، وومض نوره تألقًا وصفاءً. لكنه قلق على أخيه ثابت الذي لم يتعلم كثيرًا عن قنديله وأسراره، واستجاب للنداء الأول وتخلّى عنه وتركه وراءه. كل الذي يعرفه، أنه وُلد فيه، ولسبب ما دائمًا يشعر بانجذاب نحوه، لكن ما زاد شاكر قلقًا على قلق، هو تغير قنديل ثابت.

## 8- نقيضان

شوقاً له أو طمعاً في الاستحواذ على كل شيء، توجه ثابت مسرعاً إلى قنديله تاركاً الحلبة وراءه، وهو على يقين أنه راجع إليها لا محالة. وبمجرد خروجه من بابها، ألقي عليها نظرة ندم وتردد، ولكنه ظل يردد مواسياً نفسه: ساعة وساعة. وعندما وصل بالفعل إلى قنديله، أثار منظره الذي تغير، وضوءه الذي ذهب معظمه، أثار في نفسه بؤساً وضيئاً، ولم يتحمل رؤيته على تلك الحالة، ولم ينتبه ساعتها إلا إلى فكرة واحدة ظلت تراوده؛ التغير والفناء.

راقبه صادق كل ذلك الوقت من لحظة رجوعه إلى منطقة القناديل، فهو إما قائم على جسر البرزخ بين القناديل والحلبة يتفقد ويراقب كل من يعود إلى قنديله، وإما يقوم بجولته اليومية بين القناديل، يلاحظ أدق التغيرات فيها، وفي كلتا الحالتين ما عليه إلا أن ينتهز اللحظة المثالية ليقوم بخطوته التالية. أوشك ثابت أن يدخل قنديله فصاح به صادق:

- مغفل! ألم أقل لك من قبل أن تطرد تلك الوسوس من نفسك؟ انظر إلى حالك الآن، تأمل ذلك الخور المنكشف على ملامحك بسبب رجوعك، أو كنت ستصبح أفضل حالاً لو لم تعد؟! فالتفت إليه ثابت، ورد عليه بصوت مهزوز:

- لكنني لا أستطيع التحكم في أفكار الرجوع، فهي مازالت تطاردني. وددت لو لم يتغير حالها، ولكن يبدو أن التغير وعدم الاستقرار حقيقة لا مفر منها. هداً صادق، والتقط أنفاسه:

- يا بني، أنا أوافقك، ولكن دعني أسألك: أيعقل أن تشغل عقلك بالنوم في آخر يومك، فيعكر عليك حياتك في أوله؟! أما قنديلك الذي تغير، فانتظر حتى يكون لديك القوة والعزم لترممه، وخذ نصيبك من الحلبة حتى تمل، فتزداد خبرة وعلماً وقوة.

للمرة الثانية ألجمت تفكيره هذه الكلمات، وانعقد لسانه صمتاً! ربما لإيمان قائلها، أو لانهيار ثابت لما يريجه ويذهب انزعاجه. فعزم على ترك القنديل قبل أن يدخله، والعودة إلى الحلبة، وتعمير قنديله في وقت آخر يكون أفضل وأنسب.

اختفى صادق بعد اطمئنانه على ثابت، الذي بدأ الفعل يعطى ظهره لقنديله مستعداً للرحيل مرة أخرى استكمالاً لمسيرته في الحلبة، وتحقيقاً لهدفه فيها، آخذاً بنصيحة صادق. ولحسن حظه أو ربما لسوءه، استقبله شاكر الذي كان ينتظر رجوعه طويلاً:

- أين كنت يا أخي؟ قلقت عليك وعلى قنديك المتغير؟

قص ثابت عليه أحواله في الحلبة، وما وجد فيها من فتنةٍ وما يزيغ القلب والبصر، مما أثار فضول شاكر الذي سمع عنها مراراً، ولكنه تمالك نفسه ولم يجبه إلا بـ:

- يا أخي، هذا قنديك الذي تجد فيه ضالتك المنشودة، فهو الذي ولدت فيه، ولا راحة إلا به. واعلم أن عودتك إليه ليست بيدي ولا بيدك، ولكنه مازال باختيارك.

لأول مرة بعد بلوغه شعر ثابت برغبة شديدة في دخول قنديله، ولكنه أحس بأن تلك الرغبة قد تكون مؤبدة ومؤمناً عليها، يعود إليها وقتما أراد، فاختار الحلبة في الوقت الراهن:

- في وقت آخر.. في وقت آخر!

ثم انصرف!

## 9- صامت

بمجرد عبور ثابت من باب الحلبة، بدأ صراعه الداخلي يشتد ويعلو كما لم يعلو من قبل، أصابه الندم على الرجوع إلى قنديله، ومقابلة شاكر وصادق وسماع كلامهما المتناقضين. أدرك ثابت أن تلك الرغبة التي أثنى لدخول قنديله بعد الاستماع إلى شاكر لم تفيده، ولم تعطه حالة الاطمئنان المرغوبة، بل كان لها تأثير معاكس في زيادة حيرته وانعدام راحته، عندما أثر عدم الاستجابة لها، وسيظل يتردد قنديله على ذاكرته، فيحول بينه وبين الحلبة .. إن لم يجد حلاً!

وفي دوامات شروده تلك، لم يفكر سوى في شخص واحد قد يكون ملاذه الأخير ليخرجه من بؤسه، إنه عقل! بحث عنه هنا وهناك حتى عثر عليه، واستغاث به على حيرته، إلا أن عقل كان مباغتاً وقاسياً:

- أنت معلق بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن تترك الحلبة ولا ترجع أبداً؛ لأن وجودك خطر على مجتمع الحلبة وبالأخص على (الضاحكين)، وإما أن تذهب إلى الصامت.

تعجب ثابت: الصامت؟!

- فقط ابحث عن لافتة مكتوب عليها "الصامت".

ردد عقل كلماته الأخيرة ثم انصرف وزاد عليه:

ولكن انسَ حلمك بأن تصبح مندوباً في يوم من الأيام.

لم تعجبه تلك الكلمات الأخيرة من عقل، ولكنه لم يجد بداً من البحث عن الصامت، ففي النهاية أصبحت الحلبة -

مع قصر عهده بها- جزءاً منه، ولا يتحمل فراقها. ظل يبحث عن تلك اللافنة في كل ركن حتى وصل إلى مكان معتم، وكشك صغير قابع في وسط الظلام، إلا من بعض الضوء الأحمر من لافنة مضيئة معلقة أعلاه مكتوب عليها (الصامت).

بداخل الكشك يتربع رجل كهل وفي يده شرائح ذهبية لامعة، سألته ثابت عن تلك الشرائح فرد الرجل بكبر وضجر: - هي شريحة تزرع في الدماغ من خلال الأذن، تقتل أي صراع معنوي بداخلك عن طريق توحيد رغباتك في الحلبة، إلا أن احتياجك الدائم إلى الشريحة لن يريحك.

لم يفهم ثابت ذلك التناقض، ولكن أغراه نصف كلامه الأول، فأجابه والإثارة تملأ عينيه:

- حسناً ضعها في رأسي!

نظر إليه الرجل بجدية تامة:

- ولكنني أحذرك! إذا أردت أن تكون تحت تأثير الشريحة، فالحلبة ستكون مرادك وستصبح من أسعد

الضاحكين، ولكنك لن تصير مندوباً أبداً، ثانياً الألم الجسدي والنفسي الناتج عن استخراج الشريحة قد يكلفك

حياتك، هذا إن أردت استخراجها يوماً ما.

تردد ثابت ثم رد عليه:

- ضعها.. ضعها.

## 10- الشريحة

أنحدت الشريحة صراعات ثابت تماماً، وأصبح كالإنسان الآلي بلا ضمير أو روح، مستقراً في الحلبة لا يفارقها، ولكنه كما حذر الرجل الكهل، نسي هدفه في الانضمام إلى صفوف المندوبين، حتى إن الشريحة نفسها كانت تُعرض له في الأطياف وهي تتراقص وتتلوى له، وهو يستمتع بمشاهدتها ليلاً ونهاراً، ثم يذهب كالجنون ليكلم الناس عن تأثيرها وجمالها. كان من شبه محال أن يتخلى عن الشريحة، فكما أنها أنهت صراعاته الداخلية، فهي أيضاً سلبت منه أي قرار يتعارض معها للتغيير خارجها، وأصبح في دائرة مفرغة لا مفر منها، فكان لابد من مطرقة حتى تكسر تلك السلسلة.

كان المندوبون يميزون الضاحكين الذين يرتدون الشريحة من وسط البقية بسهولة، بسبب ابتساماتهم البلهاء التي كانت لا تفارقهم، وخفة عقولهم ولهثهم على كل ممل ومثير. كثيراً ما تجتمعوا حولهم في أوقات راحتهم في حلقات، يضحكون قليلاً كنوع من الترفيه عن أنفسهم بسبب أعباء المندوبية. وفي إحدى تلك الفقرات الساخرة، التقى عقل وثابت بعد افتراقهم لمدة طويلة، فهورول إليه ثابت ليسلم عليه، لكن عقل لم يبادل نفس تلك المشاعر، بل تجاهله تماماً ورجع إلى زملائه مفتتحاً فقرة السخرية، مشيراً إلى أنه هو الذي أحضر ذلك المهرج إلى الحلبة، فقهقه المندوبون وزادوا عليه من ألوان السخرية، حتى استفاق ثابت تدريجياً، وبدأ يقتلع عقله من أسر الشريحة وسُكرها وهيمنتها، فكانت المطرقة.

مثلت له الشريحة لوناً رمادياً لا معنى له، لا شك أنها كانت السبب وراء ذروة استمتاعه في أيامه الماضية وعدم التفاته إلى واقعه المزري. فأتت المطرقة التي صدمته بهذا الواقع، وأدرك بعد إفاقته أنه خسر كل شيء.

تهاوى أمله في أن يصبح بين مرموقين الحلبة، بل على النقيض، وجد نفسه أضحوكة لهم، وفي نفس الوقت لم يعد لقنديه وجوداً في ذهنه ولا في حساباته، فما هو إلا ضاحك ساذج لم يتحصل على شيء ولم يتفوق في مجال. أيقن ثابت أخيراً أن هذه الشريحة قد انتهى أمرها بالنسبة له.

- "أنت من القلائل الذين عزموا على نزع الشريحة بعد الحياة تحت سيطرتها، لا بد أن لديك سبباً قوياً" قالها الرجل الكهل بعد أن رأى ثابت يسير تجاهه ببطءٍ ورويةٍ تحت الضوء الأحمر، بترددٍ واضحٍ وكأنه يقبل بقدمٍ وينصرف بالأخرى.

رد عليه يائساً:

- نعم، خلصني من تلك الشريحة الملعونة.

- لا شيء أسهل من ذلك بالنسبة لي، لك بالنسبة لك، فلا سهولة ولا لين، فلكل شيء ثمن، وصحوة روحك وعقلك بعد طول رقاد هو ذلك الثمن.

تردد ثابت قليلاً، وتسرب إليه خوفٌ أوشك معه أن يمضي إلى حيث أتى، ولكنه نظر إلى الرجل الكهل في عينيه وقالها بحزم:

- انزعها!

نزع الرجل الشريحة بكل سلاسة، إلا أن ثابت أطلق صرخة عالية من جوفه كاد أن يسمعها أهل الحلبة والقناديل كلهم. نازعه الألم بضعة أيام، ثم بدأ بالزوال تدريجياً. كأنه صنمٌ لا يتحرك، منزوٍ في ركن من أركان الحلبة مطأطأ الرأس، يلعن ذلك اليوم الذي أخذ فيه بنصيحة عقل الذي حثه على الذهاب إلى كشك (الصامت). مع زوال

الألم، بدأت روح ثابت تنتعش من جديد، وبدأ يرجع له عقله لإتخاذ قرارات جديدة مستعينا بما خاضه وتعلمه  
لكتابة صفحة جديدة في كتاب صراعاته.



## 11- إلى القنديل .. ولكن!

تحولت نظرة ثابت إلى الحلبة، وتغير إحساسه تجاهها بعد إفاقته من سُكر الشريحة، والخروج من تحت قيودها. الآن، شعورٌ مختلف تماماً عن وقت تأثير الشريحة، وما قبل الشريحة. اتسمت نظرتَه تجاه الحلبة بالحيرة وعدم اليقين بحقيقتها، فأَي من إدراكاته المختلفة لها هي التي يمكن أن يحكم عليها بالصواب؟ أهي ما كان قبل الشريحة؟ أم أثناء وجودها؟ أم بعدها؟

وبالرغم من ذلك الالتباس، ألا أن ثابت تيقن من عدم ثبات الحلبة واستقرارها على حال، وأنها وهم في الحقيقة، وأن عقله وقلبه هما الذان يرسمان له خطوط الحلبة وما يكمن داخلها على حسب أهدافه ومعتقداته المسيطرة عليه في وقتها. ازداد ثابت نفوراً من الحلبة بعد كل تلك الحيرة، ولم يتردد لحظة في الذهاب إلى قنديله، عسى أن يرى أو يسمع فيه شيء يذهب حيرته ويجمع شتات أمره، ويعرفه بحقيقة نفسه، وحقيقة تلك الحلبة المتلونة.

كان الوقت ليلاً والناس نيام في قناديلهم، وصادق لا يستطيع دخولها أو حتى الاقتراب منها، فكان كعادته منتصباً على جسر البرزخ لا تطرف عيناه بلا أي ككل أو ملل، مشجعاً كل من ترك قنديله متجهاً إلى الحلبة، ومثبطاً كل من هو عائد منها. وإذا يظهر له في الأفق شخص مسرع من هؤلاء العائدين، مما أُرعبه وأحس أن روحه تنتفض من هول المنظر. طالما كره صادق مثل تلك النظرات التي اعتلت وجه ثابت وهو يهرول، نظرات لا تدل إلا على قرار قد اتخذَه بلا أي تردد أو رجعة. فما كان لصادق إلا أن ينطلق إليه مسرعاً، قبل أن ينهي ثابت رحلته ويصل لمنطقة القناديل:

- ثابت، إلى أين؟

كانت هذه من المرات النادرة التي ينادي فيها صادق أحداً باسمه، شعر ثابت حينها بالألفة والود تجاهه مما جعله يتوقف ليعطيه إجابة مباشرة:

- أرمم قنديلي وألزمه.

- ولم العجلة يا ثابت؟

رد عليه ثابت بسخط:

- لأنني نافر من الحلبة، وأشعر أنها وهم، فهي لا تثبت على حقيقة معينة.

- عظيم، أتعرف ما معنى ذلك؟ سأله صادق بابتسامته التي تخللت نفس ثابت، واهبة له الأمل الذي قد يخرج من سخطه.

- لا.. قل لي.. قالها ثابت متلهفا لما عند "صادق".

- هذا يعني أنك حققت خطوتك الأولى لتكون من المندوبين.

- كيف ذلك يا صادق؟

- كلما زاد استحقارك للحلبة، كلما زاد شأنك وسيطرتك على من تشاء فيها، وكلما اقتربت من تحقيق هدفك في أن تكون مندوباً مؤثراً يُسمع له؛ ببساطة يا ثابت، كلما صغرت الحلبة في عينيك، كلما كبر مقامك فيها.

انصرف صادق بعد ترديده لتلك الكلمات الأخيرة بأسلوبه الناصح، ولم يضيف عليها شيئاً، فهو متيقن من تأثيرها على ثابت، فأثر ألا يستزيد بالكلام. ولم يرد أن يضيع وقته معه أكثر من ذلك. وها هو بالفعل للمرة الثانية، يقف "ثابت" على البرزخ لا يتحرك، وقد طفت شعلته التي كانت تحركه تجاه قنديه.

## 12- جولة شاكر

كما كانت لصادق جولات حول القناديل وعلى البرزخ، أيضاً كان لشاكر جولاته الخاصة، يتفقد القناديل ويقدم يد المساعدة لأي أحد عزم على الرجوع إلى قنديله، يرمم معه ما تبقى منه، ويساعده في حيرته. ولكن حتى مع ذلك المجهود المبذول، فكانت تتخلل شاكر أفكار شاذة وغير منطقية أحياناً، فقد تمر عليه حالات في أوقات يشعر فيها بالاستحقار للقناديل المهجورة، وعندها، يأتيه إحساس دفين في قلبه افتخاراً بجمال قنديله وعظمته وسط القناديل الأخرى المشوهة، وقد نسي السر الذي تعلمه، نسي أن كل تلك القناديل مترابطة كشبكة واحدة ومتماسكة تمتد بعضها بالطاقة التي تجعلها مضيئة وخلاصة. غفل شاكر أحياناً عن حقيقة أن أفكاره تلك ليست في صالحه؛ فمن أسباب بقاء قنديله، أن ترجع تلك القناديل إلى حالاتها من العمران والضياء، حتى لو أصبحت أجمل من قنديله.

لهذه الوسواس لذة عند شاكر، لم يجاهد إلا قليلاً لطردها من خواطره وقلبه، ربما لأنها ملاذ يأنس بها ويعينه على الصبر وعدم تخطي ورؤية الحلبة. كان بقاءه في قنديله يقلل مع كثرة جولاته، مع إيمانه أن ذلك في سبيل تقديم العون لأهل القناديل. راقبه صادق طوال الوقت، وعلم جيداً السر وراء السمات التي تحلت بها خطوات ونظرات شاكر وما يخفي وراءها، فجاءه بعد إدراكه من أي باب سيأتيه، إلا أن شاكر هرب منه عند رؤيته كعادته:

- لا تهرب! أريد أن أمدحك على مجهوداتك العظيمة، وعلى قنديلك الذي لا مثيل له، فأنت سيد منطقة القناديل، ولي الشرف أن أقف أمامك.

كاد شاكر أن يطير فرحاً بعد سماعه لتلك الكلمات، ولكنه تماسك جاهداً، ثم قرر عدم الهروب والاستماع للمزيد. تساءل صادق وهو يظهر الثقة في قدرات شاكر:

- ألم يأن لك أن تذهب إلى الحلبة، فتأتي بهؤلاء السكارى إلى قناديلهم؟

أجابه شاكر بفزع:

- لكني ما زلت ضعيفاً وقدراتي محدودة.

- ضعيفاً؟! انظر إلى قنديلك يا صديقي.

نظر شاكر إلى قنديله، ثم التفت إلى صادق، وقد اختفى.

أكل شاكر جولته، فالشكوك تساوره حول نواياه الحقيقية، تصارعه أهدافه، فيتغلب على هواه تارةً، ويتغلب هواه عليه تارة أخرى. وبالرغم من محاولات صادق المستمرة في التوغل إلى قلب شاكر، بمحادثاته معه، انكشف الغبار عن نفسه بعد شعوره أن معرفته بأسراها وخباياها توطدت، فدرسها تمام الدراسة، مستغلاً نقاط قوتها، مفتشاً عن مواطن ضعفها حتى يعلم تحديداً أين توضع المتاريس. وأثناء شروذ ذهنه وتجميع أفكاره، أفاق شاكر على شبح لا يتحرك، ظهر له في الأفق على طريق البرزخ، فاقرب منه عسى أن يكون بحاجة إلى مساعدة وتأيد، وإذ به يستبشر بمن رآه، لأنه ثابت أخاه، ولكنه لم يستبشر بما لاحظ عليه من ضعف وتردد، فناداه:

- إن هي إلا المشقة الأولى حتى يتجلى صدقك، ثم يذهب ذلك كله وتبقى الثمار.

خففت تلك الكلمات من مخالب التردد التي نهشت قلب ثابت، وبدأ بالتوجه إلى شاكر.

### 13. سرّ.. وسرّ.

قام العالم حينها على مبدئين أو سرّين، بهما ينال العزة أو الذلة، السر الأول: اشتراك منطقة القناديل والحلبة بنفس الطاقة المولدة، فإذا خربت وهُجرت إحداهما، كانت الأخرى أشد قوة وبقاءً، الاثنان يستمدان الطاقة من مصدر واحد هو القلب، لكن الحلبة تستمد تلك الطاقة بطريقة غير مباشرة من القناديل، التي بدورها تستمد طاقتها من القلب مباشرة. هذا السر لا يعلمه إلا صادق وكل مندوبين الحلبة والمتميزون النوادر من أهل القناديل، أما شاكر فليس من هؤلاء أو هؤلاء..

السر الثاني، أن منطقة القناديل في الحقيقة شبكة متماسكة كأنها قنديل واحد كبير، فإذا خرب قنديل وهجر اقترب انخراب من القناديل المجاورة. وإذا ازداد قنديلُ بريقًا وجمالًا، اقترب الصلاح وقُرْب الأثر من القناديل الأخرى. هذا السر لا يعلمه إلا صادق، وكل أصحاب القناديل، والمتميزون النوادر من المندوبين، ولم يكن عقل منهم.

فبعلم عقل للسر الأول وجهله بالثاني، صار كل هدفه أن يأتي بأصحاب القناديل إلى الحلبة حتى تعمّر الحلبة ويستمر وجودها، ومن ثمّ وجوده. فهو لا يريد خراب منطقة القناديل، بل غايته في استمرار بقاءه مهما تكلف الأمر، حتى ولو على حساب القناديل. ويجهل شاكر للسر الأول، لم يدرك أن ذهاب الناس إلى الحلبة سيستنفد كثيرًا من طاقات منطقة القناديل، فكانت أولى اهتماماته منصبّه على منطقة القناديل -بسبب علمه بالسر الثاني- وتقوية تلك الشبكة التي تصب في مصلحة قنديله.

أما صادق، فهو من الأوائل الذين أدركوا السرّين معاً، لكنه لا يهتم بالحلبة؛ لا بأطياؤها الساذجة، ولا بالمنافسة فيها على منصب، أو مكانة بين أناس لم يتحصلوا حتى على ربع علمه. فلو أراد المنصب، لسحقهم في يوم وليلة. والقناديل هي الأخرى لا تثير اهتمامه بجمالها، وبريقها، فقط غايته وما يثيره أن يرى القناديل القبيحة التي هُجرت بسبب تأثيره وكلامه. ولكن هذه الغاية العجيبة لم يولد بها، ولكنها أُنشئت بداخله بسبب خيارين قد احتار بينهما سابقاً، وكان هذا التخيير هو الثمن لمعرفته السرّين؛ سر الحلبة، وسر القناديل. ففضل الخيار الأول -وهو الدمار التام- على الثاني، العمار الكامل. ولكن ثمة شيئاً ينقصه، فهو في بحث دائم عن يكمل مسيرته ويختار كما اختار، وقد وجد في ثابت ذلك الشخص بسبب تردده المستمر بين القناديل والحلبة، فلعله يتعلم ما لا يستطيع أن يلقنه له صادق مباشرة.

## 14- العودة

أخذ شاكر بيد أخيه حتى أتيا قنديل ثابت، الذي قد خرج مؤخرًا من مبارزة عنيفة مع نفسه، والتي لم تحسم بعد، ولأنه لاحظ الإجهاد والتعب عليه، اضطر شاكر أن يتركه وحيدًا لينصرف، لأن هذا هو المكان الوحيد الذي لا يدخله ولا يفهمه إلا صاحبه. مكث ثابت قليلًا في الخارج يتأمل قنديله الذي تشوه، وكاد أن ينصرف للمرة الثالثة لما أصابه من إحباط بسبب منظر قنديله، ولكنه أصر على الدخول والرجوع إلى أصله، وتلبية ذلك النداء بداخله ولو مرة واحدة وأخيرة.

كان القنديل بالداخل بسيط البنيان، حائطًا واحدًا بيضاوي بلا أي فواصل، ملتفًا حول كل زوايا القنديل، هيئته من الداخل كهيئته من الخارج، وفي الوسط فتيلة مستقرة على صحن ذهبي فيه ماء. كان الماء حينها عكرًا ومضطربًا، وبجرد دخول ثابت قنديله، انبثق من تلك الفتيلة شعاع اتصل بصدرة مباشرة بلا أي مقدمات. أحس ثابت كأن سكينًا اخترقت قلبه عند أول ذلك الاتصال، ثم رويدًا رويدًا خفت حدة الألم، أخيرًا، انتابه شعور بالألفة والراحة حيال القنديل، وصفى الماء، وهذا بعد طول فساد واضطراب.

عرفت كل فتيلة صاحبها، اتصلت بقلبه منذ ولادته، ومهما طالت مدة هجر القنديل فهي دائمًا نتعرف عليه وعلى قلبه. لكن هناك مضاعفات تصاحب طول الهجر؛ فكما اتسعت الفجوة بين القنديل وصاحبه، كلما تضاعف ألم الاتصال عند الرجوع، لكنه ألمٌ وقتي، لا يقارن بمدة الهجر طويلة الأمد، بل فيه فائدة أثناءه، وثمره بعد انتهاءه. أما الألم الذي شعر به ثابت، فلم يكن سوى نتاج لإعادة تنظيم أولياته وأفكاره، وما نتج عنها من ضмор رغباته



وخفوت معتقداته القديمة، واستبدالها نوراً وبريقاً صافياً، يتزين به قنديله في وقت قصير، فكأن شدة الألم هي طريقه المختصر والقصير لقنديل وقلب صافٍ.

كان كعادة صادق أن يتربص ويراقب ثابت من بعيد، ما أغاظه أن يزداد قنديله بريقاً بعد أن استمتع كثيراً بمنظره المشوه. يحاول انتهاز أي فرصة أو نقطة ضعف حتى يكلمه، فيرجع في ذلك القرار الذي اتخذهُ أو يزيد من تردده، فكان يشاهده يجمع ثماره أو يزرع بذورها كل يوم أو يومين. لكن تأتته الجرأة بعد ليُقبل عليه، فما زال ثابت راسخاً ثابتاً يزداد قنديله بريقاً وصفاءً يوماً بعد يوم.

ولأن دوام الحال .. ليس من المحال! ولابد من خواطر وأفكار متناقضة لحال ثابت تأتته، فيحللها وينقيها حتى يكون مستحقاً لتلك الحالة الجديدة التي جاءت به بلا حول منه ولا قوة، فراودته أحياناً تلك الفكرة الغريبة؛ يُخيل إليه إمكانية الجمع بين قنديله والحلبة، وفي أعماق نفسه يدرك استحالة تحقيق ذلك، فكيف له أن يجمع بين نقيضين؟! وبالأخص إن استمدا طاقتهما من نفس المصدر وهو القلب، فلو كان له قلبان، لكان ذلك ممكناً. تحولت خواطر ثابت إلى أفكار ومحاولات لإيجاد حل لهذه المعادلة الصعبة، وبدأ بريق قنديله يخفت قليلاً، وصادق له بالمرصاد.

## 15- أي مدخل؟!!

بعد عكوف صادق أياماً وشهوراً منتظراً أي فرصة أو مدخل ليكلم ثابت، عاوده الأمل أخيراً عندما خفت نورُ قنديل ثابت قليلاً بسبب الخواطر التي راودته، وتحولت الخواطر إلى أفكار، والأفكار إلى سعي. أقبل صادق عليه بكل ثقة عندما رأى كيف استولى عليه التردد، وبدا التذبذب وضعف القرار القديم جلياً على وجه ثابت وعلى حركاته وسكناته:

- أنا نفور بك يا بني.

التفت إليه ثابت:

- نفور؟!!

- لعلك وجدت ضالتك المنشودة.

رد ثابت بشك:

- لا أعلم إن كانت كذلك، ولكنه شيءٌ جديد وممتع بلا شك.

- يا بني، أنا أعلم جمال الأشياء في أولها، فدعك من الحلبة المملة، واذهب لتستمع بشيءٍ جديد، فأنت على

صواب بلا شك.

كانت هذه طريقة صادق دوماً، فظاهر كلامه جميلٌ ومقنع، ولكنه قد يترك كلمة واحدة كفيلاً بتوليد سلسلة

من الشكوك والهواجس لا آخر لها.

انصرف ثابت إلى قنديله وهو يفكر في تلك الكلمة "استمتع"، وظل يفكر في حقيقة انجذابه لقنديله، أنه مجرد تجربة شيء جديد والاستمتاع به، أم فعل الصواب واتباع حقيقة مجردة من أي هوى؟! ثم طرد تلك الوسوس من قلبه، وجلس ينقي قلبه من فتيلة قنديله، ويزيده ضياءً.

بدأت تراوده خواطر وأفكار أخرى تبعاً لسماع صادق، ولكنها جاءت هذه المرة في صورة أخرى تماماً، وكأن نفسه المحبة للمادة تبحث عن أي مخرج لتترك قنديله. وبالرغم مما يراه حوله من نظام محكم الصنع في الحلبة والقناديل ونفسه، وعلاقة كل ذلك ببعض، أحس لسبب ما وهو يكلم خالق ذلك النظام، بأنه يكلم نفسه وأنه موهوم بتلك الصلة بينه وبين خالقه، وأن هذه الصلة مُخلقة لِيشعر نفسه بالاطمئنان.

أدرك ثابت عندها أن إيمانه واعتماده على القنديل أقوى من إيمانه بصانع القنديل. ولجأة سمع صوت شاكر يعلو في الخارج بالخطاب والطلب، فاستغرب تلك الحالة، وكأن شاكر يكلم شيئاً قائماً أمامه، يراه بعينه ويسمعه بأذنيه، غائباً عن حواس ثابت، ففرج ليتأكد من شكوكه، فوجد شاكر قائماً وحده، وما إن انتهى حتى أقبل عليه ثابت يسأله عن حالته ويشكوه إحساسه بحديثه الغريب إلى نفسه، فرد عليه شاكر:

- هذا صواب من جهة وخطأ من جهة أخرى، فإن كنت تؤمن بأنه وهم فهو وهم وحق بالنسبة لك، وخطأ في المطلق العام وبالنسبة للحقيقة الخارجية التي لا تتغير، وإن كنت تؤمن أنك تكلم ربك، فهو حق بالنسبة لك وفي المطلق وقد وفقت إلى الغرض من الدعاء، فما الدعاء والطلب إلا انسجام مع الحقيقة المطلقة بأن ربك، ورب القنديل، يسمعك ويراك، سواءً دعوته أم لم تدعوه، ودعاؤك ما هو إلا استسلام وإيمان بتلك الحقيقة.

شَفَتْ تلك الإجابة صدر ثابت، وظل يدعو ربه -صانع القنديل- فترة من الزمن بدلاً من الاعتماد على القنديل، واشتد إيمانه وبريق قنديله كما لم يفعل من قبل، وكان دائم التأهب ضد أي خواطر تأتيه عن قنديله أو صانعه.

و بمجرد إحساسه بقوة نفسه الجديدة، حتي بدأت الوسوس تأتيه من تلك الجهة، فظل يتساءل عن السر وراء تلك القوة، أهى عزه نفسه التي تدفعه لعدم العودة إلى الحلبه؟! أم شكرُ لخالقه وابتغاء مرضاته بعد إخراجها؟! لم يصبر ثابت كعادته على حيرته، وشعر بمنةٍ تجاه خالقه بسبب عكوفه في قنيله الذي وفقه له، وأن تلك الأفكار ما كان ينبغي لها أن تأتيه، بل رأى أنه مستحق لتمام الراحة والاستقرار، فكانت النتيجة مزيد من الأفكار والخواطر.

## 16- وهم السيطرة

شهور وسنوات من المكوث في القنديل، والانقطاع عن الحلبة، وعدم تلبية نداء نفسه في الرجوع إليها، والسعي للاستعلاء فيها. أما ثابت فما زال مشتاقاً، أحس بسبب تغييره الجذري في تلك الفترة، أن عودته لتلك الحالة القديمة وتعلقه بالحلبة ضربٌ من المحال، وأن قلبه بيده وهو المتحكم به، ولكنه خرج يبحث عن صادق الحكيم حتى يحسم ذلك الصراع بداخله حول اشتياقه للحلبة وحبه لقنديله، عسى أن يسمع منه كلمة تدفعه لاتباع صوت منطقه باطمئنان، فوجده صادق قبل أن يجده هو، فقص عليه ما يدور في خَلده، فأجابه إجابة الرجل الحكيم والخنون:

- لا يخذلك الاشتياق لما يؤذيك ولا ينفعك، اذهب لترى نعمة خالقك عليك، فتشكره، وتزيد صلتك به، عندما تدرك أن معظم الناس لم يُوفّقوا لما وُفقت له، اذهب لعل خالقك يهدي بك أحداً.

أرضت تلك الإجابة الطرفين المتصارعين داخل قلب ثابت، ذلك هو الرد الذي بحث عنه، وتساءل مع نفسه: "لم لا أعود إلى الحلبة أدعوهم وأرشدهم؟ فإن لم أفعل، فكيف لي أن أتعايش مع ذلك الضعف وقلة الحيلة؟! وحتى لو ضعفت، فأنا أعرف الطريق إلى قنديلي؛ لأنني قد سلكته مرة، ولن يصعب عليّ أن أسلكه مرة أخرى؛ أنا المتحكم وأنا المسيطر".

وهو في طريقه إلى الحلبة أحس ثابت بقوة وثقة لم يحس بهما من قبل، حتى شعر أن قدميه كادت أن تحرق الأرض من فرط قوته. وعند عبوره لذلك الباب الذي لم يلق له بال ولا بالنقوش التي تزينه، تذكر زيارته الأولى

والانهار الذي تملكه، وقارنه بلحظته الحالية وتلك النظرة المستعيلة على هؤلاء الحمقى النيام، وهم يتحركون في أرجاء الحلبة كالبهائم، فاطمأن وأيقن أن ظنونه المتعلقة بقوته كانت في محلها، وأن هؤلاء الحمقى من المحال أن يعرضوه للإغواء؛ لأنهم ببساطة أقل منه وبالغباء أن يفعلوا.

ظل ثابت ينتقل بين الحلبة وقنديله في محاولة للجمع بينهما، فكان يمكث في الحلبة ليقنع الناس بتركها والرجوع إلى أصولهم التي خلقوا عليها، ثم يرجع إلى قنديله ولا يهجره. وبمرور الوقت أصبح مكوثه في الحلبة أطول، وفي قنديله أقل حتى كاد بريقه كله يذهب، وزاد انتباهه إلى النقوش التي على الباب، وعادته رغبته القديمة في مكان مخصص له عليه، حتى قابله عقل في أحد الأيام، فانتابته رهبة لرؤيته، إلا أنه تملك نفسه، وتذكر مهمته في الحلبة، فحاول أن يقنعه بالرجوع إلى قنديله. لكن عقل تبسم بسخرية بسبب صوت ثابت المهزوز، وقرر أنه حتى لا يستحق الطرد بسبب تأثيره المعدوم.

## 17- تزيق العباد

أخذ عقل بيد تابعه القديم، ولم يطرده من الحلبة بسبب محاولاته في التأثير على الناس، والإخلال بالشرط الأهم الذي شدد عليه من قبل: "إياك أن تشعر أحداً بأنك مختلف"، لكنه رفق به، وظل يسمعه ويحلل نبرات صوته ونظراته، حتى أيقن أنه ما زال متعلقاً بالحلبة، لا يريد إلا البقاء فيها ومخالطة أهلها، فنوى عقل أن لا يطرد ثابت، ولكن في نفس الوقت، لا يمكن أن يتركه على حالته تلك، ويجب عليه التصرف سريعاً لإسكات تلك الأصوات الروحانية واللامادية بداخله. ظل ثابت يتحدث طوال الوقت وهما يسيران في أرجاء الحلبة، ولم يتفوه عقل بكلمة واحدة، حتى وصلا إلى معبدٍ ضخم منقوش على حائطه الخارجي: (تزيق العباد). تركه عقل، وشق طريقه بلا سلام أو كلام، ليقينه بأن ذلك النقش سيثير فضول ثابت، وبالفعل لم يتردد ثابت لحظة لدخول المعبد.

للمعبد هيبَةٌ مصطنعة، لم يشعر بها ثابت في أي مكان، ولا حتى في قنديله. زخارف وكتب قديمة على الحائط قد تكدست فوق بعضها، وتماثيل في كل ركن تحت ضوء خافت أضفى لثابت نشوة اعتقد أنها نشوة روحانية. توجه ثابت إلى رجل أدرك -بسبب سكونه وعدم تشتهه- أنها ليست المرة الأولى له هنا، ثم اتضح له فيما بعد، أنه مرشد المعبد، سأله ثابت:

- ما هذا المكان؟

رد عليه الرجل بتواضع ووقار:

- للوصول إلى ربك، ثمة أكثر من طريق، ومن هذه الطرق، العقل، فالكتب هنا كما ترى لا تخصي ومن كل لون، وقد يضيف تطلعك عليها بعض الطمأنينة عندما تغمرك بحور المعرفة، وتتعلم الكفاية التي تعرفك على ربك.

وإن أردت أن تصل إليه بالمادة، فالأشكال والتماثيل حولك في كل مكان، اختر منها ما ترتاح له نفسك، واستشعر صلتك بربك من خلال الهيبة المنبعثة منها، وإن كنت ترغب في معرفة ربك بالأشخاص والمثل العليا، فهناك من عرفوه قبلك، فاذهب إليهم واسمع منهم ولا تجادلهم، فقد وصلوا إليه قبلك وقد يأخذوا بيدك.

بالرغم أن تلك الأشياء الثلاثة؛ العقل والمادة والأشخاص، لم تشف صدر ثابت، لفقدان العامل الأساسي الذي وجدته في قنديله وهو القلب، ولكنه هجر قنديله بالكلية، وآثر القدوم على ذلك المكان، لإعطائه فرصة. وهكذا، بقدومه على (ترياق العباد)، لن يحتاج أن يخرج من الحلبة أبداً، لأن كل ما يريده وتهواه نفسه داخل أسوارها.



## 18- كل شيء هنا

بعد طول صراع، أدرك ثابت أنه حقق المعادلة المستحيلة، وأحس عندها أنه لا يقهر، وأن بداخله قوة ودهاء لم يؤتها إلا القليل من قبله. استمتع بالحلبة؛ أطياها وأهلها، حتى إذا راودته أفكاره القديمة ولقاؤه المحتوم، هرع إلى تزيق العباد، فيستشعر صلته بربه، سواء بالقراءة المتعمقة، أو بالصور الروحانية، أو تلقيه من الذين تظهر عبوديتهم على ألسنتهم، فتسكت أصوات عقله ليخرج إلى الحلبة مرة أخرى صافي الذهن، فيستغرق في أحلام يقظته وفي الأطياف ليحاول تحقيق هدفه وغايته القديمة في ارتقائه من الضاحكين إلى المندوبين، فيبحث عن عقل، يراقبه هو وأقرانه، راجياً أن يسمحوا له بخالطتهم، ليتعلم منهم سر ذلك الترقى، ولكنهم لا يطفئون نار فضوله ولا يعطونه إلا رذاذاً.

طفح الكيل بثابت، حتى عزم على مواجهة عقل واستخراج منه إجابات صريحة، فجاءه وسأله بلا سلام ولا مقدمات:

- عقل، ألم يأن لك أن تقول لي، ماذا ينقصني حتى أكون مثلك؟!

رد عقل بسخرية:

- مثلي! ينقصك أن تتخلى عما يعيقك، الأمر بهذه البساطة.

- وما هذا الشيء؟

- أتمزح؟! لم تعلم بعد؟! قنديلك بالطبع.

لطالما هرب ثابت من هذه الإجابة التي نزلت عليه كالصاعقة. يعلم أن قنديله هو سبب صراعاته، وهو السبب الذي لم يجعله أن يتخذ خطوات كبيرة وصارمة في الحلبة، فكيف له أن يكون مندوباً وهو بتلك الذبذبة؟! لكنه دائماً يتحاشى ذلك الحل، ولا يتخيل أبداً هجر قنديله أو مجرد تأجيل اللقاء، عسى أن يقع بين يديه حل لتلك المعادلة المستحيلة.

"حسناً، إذا وجب عليّ أن أأخذ قراراً نهائياً، فلن تضربي زيارة أخيرة إلى قنديلي" قالها ثابت في نفسه وهو في طريقه لمنطقة القناديل، تاركاً الحلبة وراءه، راجياً أن يجد في زيارته الأخيرة ما يعينه على أي اختيار يتخذه. وعند اللقاء المنتظر، آسى ثابت على ما فرط في حق ذلك القنديل، بعد أن وجده تحطم تماماً، ولم يتبق منه إلا هيكله، بعد أن كان مفعماً بالبهاء والجمال، كالعروس وسط القناديل الأخرى. جلس ثابت أمام قنديله، وصادق يراقبه من بعيد وهو في أسعد لحظاته، فأقبل عليه وهو يراه فريسة سهلة قد استسلمت يسهل عليها الانقضاء.

بمجرد رؤيته لصادق، بدأ ثابت بالكلام متوسماً فيه أي مخرج من قاع تيهه مهما كلفه الأمر:  
- هل أطلب المستحيل بالجمع بين نقيضين، أم عليّ أن أحاول مرة أخرى حتى أتقن ذلك الجمع؟!

رد عليه صادق بعد أن اختار كلامه ومفرداته بعناية:

- ضعفك وضيق نفسك يا بني، ما هما إلا بسبب ترددك بين طريقتين، والجمع بينهما محال، وقنديلك قد جربته بالفعل، وإن كان فيه راحتك ما تركته. فلك أن تختار، إما أن ترجع إلى قنديلك، ولن تنال سكينتك ولن تنتهي صراعاتك، أو تنسى ذلك القنديل المشؤوم الذي لم يزدك إلا ضعفاً وجبنًا، وتشق طريقك في الحلبة حتى تكون ذا شأن فيها.

انصرف صادق مباشرة كعادته بعد إلقاء خطابه، ولكن هذه المرة كانت لكلماته تأثير معاكس على ثابت، فكان لتعبير "أن تنسى" وقع شديد على نفس ثابت، لغلبة ظنه أن تأجيل رجوعه إلى قنديله ممكنٌ مهما طالّت مدة المهجر والانقطاع، وأنه لن ينساه أبداً. وعندها تهاوت أوهامه وأمانيه، وأيقن صحة قراره بالرجوع لقنديله في أسرع وقت، وظل يردد مع نفسه "لن أنسى أبداً، وليذهب شأني في الحلبة إلى الجحيم".

## 19- ترميم

كانت فكرة الرجوع وإعادة بناء القنديل، ثقيلة دوماً على ثابت؛ لحاجة القنديل إلى جهد مضاعف حتى يعود لحالته القديمة التي كان عليها. وكادت تلك الأفكار أن تثبطه، وبالأخص عندما حاول صادق أن يقنعه بالتأجيل بعد أن رآه وقد همّ إلى قنديله، ولم تؤثر كلماته الأخيرة فيه وتوجهه كما أراد، ولكن ثابت تشبّث بفكرة الترميم.

استقبل شاكر أخاه ثابت على باب قنديله، ولم يتفاعل إلا بابتسامته المطمئنة عندما رأى في ثابت العزم المخلوط ببعض التردد، ولكنه أدرك أن ذلك التردد والضعف سيصير مصدر قوة في قلبه وعقله تعينه على توطيد علاقته بربه، إن ثبت وصبر ولم ييأس، لأن النتيجة والأجر دائماً على قدر المجهود، وعلى ثابت الآن بذل الكثير من ذلك المجهود ليعود قنديله إلى ملامحه.

أوشك ثابت أن يصيبه اليأس عدة مرات بعد طول ترميم، فقد ظل يرمم في قنديله فترة طويلة حتى فقد شعوره بالزمن، وكانت أفكار الاستسلام دائماً تأتيه كلما أحس بقوته، ثم يفيق ويتذكر أن لا حول له ولا قوة إلا بربه، ويعترف بضعفه أمام خالقه، فيرجع إليه عزمه وزيادة. وأخيراً، انتهى الترميم وعاد القنديل إلى حالته الأصلية، وشعر ثابت أن كل التعب الذي مر به لا يساوي تلك اللحظة، لحظة النهاية، أو بالأصح، البداية السعيدة، الآن كل ما عليه أن يحافظ عليه ويتعلم من أخطائه، ولا يدري إن كان سيوفق إلى ما وفق إليه، إن تكرر عمده وخطأه.

دخل ثابت قنديله وقد انتابته مشاعر جديدة تجاهه، فشعر لحظة دخوله أنه وقنديله متوافقان، وأن قربه لربه أعمق،

ولا يدري أذلك بسبب طول المسافة التي رجعها أم لشيء آخر. وكلها تسرب إلى ثابت شعور الفخر والإعجاب، تذكر حالته القديمة وكيف خرج من الظلام إلى النور بلا حول منه ولا قوة، بل هي بضعة قرارات قد وُفق للسير فيها، فيخشع ويستحي من أي إعجاب بنفسه يمتلكه، وكلها طارده أشباح الماضي وهواجسه، وحتمية تأثيرها عليه بالسلب، يجاهد في طردها والطلب في تحييدها، ويركز على ساعته ويومه، فهي كل ما يملكه، وليس من ماضيه إلا استخلاص العبر والدروس التي تعطيه القوة والبصيرة في حاضره.

## 20- لكل شيء ثمن

كان لقرب ثابت من ربه، قيمة لا تُقدّر وعلمٌ وتربية لا تُحصى حتى لو عكف على دراسة كل كتب العالم، لذلك كان لتلك النعمة ثمنٌ غالٍ، وهو التخيير! أن يجاهد نفسه على عدم استخدام نور قلبه لأغراضه الشخصية، وتحويل ذلك النور إلى دهاء شيطاني. فكما زاد تعلقه بقنديله وبربه، زاد استحقاقه للحبة، وحطّ ذلك الاستحقاق من هيبة الحبة في قلبه، مما يؤدي إلى أفكار دهائية وشجاعة في مواجهة كل مجهول، والخوض في ما لا يخوض فيه إلا القليل النادر. تلك الأفكار والخواطر تشتت حداثها كلما زادت غفلته عن ربه وقنديله، حتى ولو مكث فيه بالأيام والساعات.

وبالرغم من استحقاق ثابت للحبة، وزيادة تعلقه بقنديله الذي يُعد نعمة عظيمة لم يحظ بها إلا القليل، إلا أن التوفيق بعد هذه النعمة بالثبات شيءٌ آخر، فإن اتبع هواه ونداءات طبعه الفضولي فقد خسر، وإن ألهم الثبات إلى أجله المسمى، فهو الموفق حقًا بلا حول منه ولا قوة، بل بمجرد التدلل لمن بيده الأمر من قبل ومن بعد إعراف حقيقي بضعفه.

نسي ثابت للمرة الثانية القاع والته الذي أخرج منه واغتر بقوته وعزمه، وأنه هو المتحكم والأمر الناهي على قلبه. فترك قنديله للمرة الثانية للخوض في فصل جديد ومجهول في حياته، لا يعلم شيئاً عن نهايته، أسعيدة هي أم حزينة؟! تركه وهو غافل عن حقيقة موقن بها قد تعلمها بأسى التجربة، حقيقة أن هذه قد تكون المرة الأخيرة التي يرى فيها قنديله، لكنه غافل عن تلك الحقيقة، وليس بجاهلها.

هذه المرة، لحظة عبور ثابت من باب الحلبة، تضاربت في قلبه أحاسيسٌ جديدةٌ ومختلفةٌ تماماً، حتى عن رجوعه السابق، ففي المرة الأولى التي ترك فيها قنديله، كان يستشعر سداجة الآخرين مع يقينه بفضلهم بينهم، ولكنه كان لا حيلة ولا قوة له عليهم لرهبته من المندوبين واستعظامهم في قلبه. أما هذه المرة أحس بأنه قائدهم، إذ بات يقرأ بين السطور بسهولة وله نظرة ثاقبة في كل شيء، يرى النقص في أهداف الضاحكين، وفي طرق استمتاعهم، ويرى النقص في عقل المندوبين وفي طرق قيادتهم وتأثيرهم، فشر للمرة الأولى بكامله الذي طالما بحث عنه، وكأنه الحجر الناقص ليكتمل البناء، بل والحجر الأساسي الوحيد.

تحول النور القلبي داخل صدر ثابت إلى دهاء فذ، وتحول كرهه للحلبة واستحقاره لها إلى قدرة وذكاء يحصل بها كل ما يريده ويشتهي، مسخراً الناس تحت إمرته عن طريق التلاعب والسيطرة على عقولهم، ومع هذه القدرة الجديدة، زاد غروره وانخداعه بنفسه وقدرته في الرجوع إلى قنديله وقتما شاء، فما زال وهم سيطرته على قلبه يجري في عروقه مجرى الدم.

## 21- وأخيراً

تميّز ثابت بهيبةٍ في الحلبة تلاحقه أينما ذهب، تظهر في عينيه وعلى لسانه عندما يتكلم مع أي أحد، سواء كان من الضاحكين أو المندوبين. استمد تلك الهيبة من استحقاقه للحلبة وكل من فيها، بعدما رأى من جمال وقيمة قنديله مقارنة بالحلبة. وتبدلت رغبته الأولى من محاولة إقناع من تركوا قناديلهم في العدول عن قرارهم، إلى مساعدة المستجدين الذين تركوا قناديلهم مؤخراً في الاستمتاع بأطياف الحلبة، والسعي وراء أحلامهم، ونسيان كل ما هو وراء باب الحلبة. وكانت قدراته استثنائية في تلك المساعدة، فبنظرة واحدة لأحدهم، يرى بوضوح ما يدور في خواطرهم من صراعات وأفكار تعوق بينهم وبين الحلبة، فيبرهن لهم ببراعته وسذاجتهم عدم جدوى تلك الأفكار في نموهم أو استمتاعهم.

أما عقل، فلم يكن له خيار إلا ملازمة ثابت والتعلم منه، بعدما رأى تأثيره في الحلبة، وبقاء الضاحكين، وزيادة الطاقة التي تولد الأطياف، والظلام الذي حل بمنطقة القناديل. فلم يفارقه عقل لحظة، يسأله عن كل شيء، وثابت يرد عليه بعجرفة ولا يجيبه إلا بكلمات سطحية، ليس ذلك خوفاً من أن يتفوق عليه، ولكن بسبب أن نفس عقل لن تستوعب ما يستوعبه، فلم يرد أن يضيع وقته معه، فما زال عقل ينظر تحت قدميه، ولا قدرة له على رؤية الصورة كاملة، على عكس ثابت الذي أصبحت الرؤية بالنسبة له في الحلبة كوضوح الشمس.

ولكن هناك شيءٌ واحد كان ينقصه، دائم التفكير فيه، وهو وجود شاكر معه في الحلبة؛ ليس اشتياقاً له أو حباً



فيه، بل لإدراك ثابت أن في ذلك قمة الحب والمساعدة لنفسه، فتزيد ثقته واعتزازه بنفسه عندما يدفع شاكر العنيد الذي لم يفارق قنديله مرة واحدة في عمره أن يتواجد في الحلبة، وثانياً، بوجوده جانبه سيطمئن أكثر بقراراته الجديدة من هجر قنديله والبقاء في الحلبة، فيصفي ذهنه. نوى ثابت زيارة منطقة القناديل وأن لا يرجع إلا وشاكر في يده.

## 22- اركب معي

اتجه ثابت إلى منطقة القناديل موقناً بأن قوة تأثيره حتماً سترجعه وشاكر في يديه، تلك القوة التي حولت مساحة عظيمة من منطقة القناديل إلى مكان مظلم، وحولت الحلقة إلى مكان مضيء لا يتوقف ولا يتعطل، بفضل الطاقة المسروقة من القناديل. وصل ثابت أخيراً إلى منطقة القناديل، ولكنه فوجئ بعدم رؤية صادق لأول مرة لا في البرزخ ولا قريباً من القناديل، ولكنه لم يبال، فاحتياجه لنصائحه الآن أصبح معدوماً. مر على قنديله ليلقي عليه نظرة فضولية قبل زيارته لشاكر، فوجده قد تهشم تماماً ولم يبق منه إلا بعض من هيكله وآثاره، ولكن هذه المرة لم يتأثر ثابت بذلك المنظر، لا بسبب خروج القنديل من فكره بالكلية، ولكن لإيمانه بقوته أنه إن أراد الرجوع يوماً ما، فسيحوّله إلى أجمل قنديل في المنطقة، ولكن الوقت الآن غير مناسب بالنسبة له.

- شاكر!

ناداه ثابت من على باب قنديله، نخرج إليه في قوة وتواضع، وقد تغيرت هيئته كما تغير قنديله، وأصبح من أجمل القناديل. فبمروره ببعض الأزمات التي لم يتزعزع أمامها، كان له أثر عليه وقوة لم يتحملها ثابت، فاختلطت أفكاره المرتبة ومخططه أمام هيبة شاكر عند مجرد الإطلاع عليه.

بدأ شاكر بالكلام عندما رأى سكوت ثابت وارتياحه:

- اشتقت لك يا أخي، واشتاق لك مهجورك.

- وأنا يا أخي اشتقت لك، جئت لأطمئن عليك وسأرحل الآن.

انصرف ثابت دون أن يتفوه بكلمة مما خطط له، وحاول شاكر إيقافه، لكن لا جدوى.

كاد أن يجن جنون ثابت وهو يتذكر أول لقاء له مع عقل، وقارنه بشاكر أخيه الذي حل محل عقل في قلبه من هيئته والخوف منه، وبدأ يشك في قوته الجديدة التي بداخله، وظن أنها لا تبدي نفعاً مع ناس معينة، فقرر الرجوع إلى الحلبة لتكملة مسيرته في السيطرة، ولكن ما زالت صورة شاكر عالقة في ذهنه، مما جعله يشفق قليلاً على قنديله، معتقداً أن تجربته مع قنديله كانت سطحية، وأنه لم يعطه نفسه كله، فلم يأخذ منه إلا القليل وأن أسرارهِ ولطائفهِ لم تكشف له بعد. إلا أن ثابت كعادته تمادى في تسويفه وتأجيله عندما تراوده ولو فكرة واحدة فيها من الخير، فيطمئن على صلاح نفسه واستقامتها.

## 23- خيبة الظن

سار ثابت إلى الحلبة وهو يفكر في قنديله المحطم، وفي شاكر، وفي منطقة القناديل التي أصبحت مهجورة ومظلمة بسبب مجهوداته ومكره. وعندما وصل إلى الحلبة، وقعت عينيه على صورة لنقشه واسمه على باب الحلبة الكبير، فكاد أن يموت فرحاً، فهذا هي اللحظة التي كان يتمناها، وها هي أطياف الحلبة التي شاهدها في أول مجيئه تتحقق، فتبخرت خواطره عن شاكر والقناديل، ودخل الحلبة وانتظره الجميع؛ ضاحكين ومندوبين، ولم يصدق أن سعيه الذي طالما عانى بسببه، وذاق من الصراعات التي لم يطيقها إلا القليل من البشر، قد تحقق ونال ما أراد.

ولكن بمرور الوقت، بدأ ثابت يعتاد منزلته الجديدة في الحلبة ويألفها، وأحس أن الثمن الذي دفعه لتلك المنزلّة كان غالياً لا يستحق تلك الحالة المملة التي وصل لها بعد انطفاء شعلة شغفه، فعادت إليه حيرته القديمة واستيقظت صراعاته، لا يعلم، أيعود إلى قنديله الذي لم يكشف أسرارها كلها بعد؟! فحتماً لن يوصله لتلك النهاية الحزينة والمملة، ولن يشعره بتحقيق أوهام لا تسمن ولا تغني من جوع. أم يبحث عن حلم آخر يسعى إلى تحقيقه، ويستمتع بالركوض خلفه، وبمشاهدة خيالات غايته في نفسه وفي الأطياف؟! هذا الذي اختاره ثابت، رافعاً بصره إلى الأطياف التي قويت بمجهوداته في تعمير الحلبة وهجران منطقة القناديل، عسى أن ترسم له رغبة جديدة وهدف يهرع إليه لملأ ذلك الفراغ بداخله.

في قرارة نفسه، تمنى ثابت لو ظل ضاحكاً ساذجاً لا يعلم شيئاً عن القناديل ولا حياة المندوبين، تمنى لو يعود طفلاً أو حيواناً يستمتع بلا أي تفكير أو قيود. خدمته الأطياف حتى أرتته ما لا يستطيع أن يرى، أو يتخيل ما لم يخطر على باله، فبعد عدم رضائه بالرقى في الحلبة، وعدم صبره على البقاء في قنديله، كانت مهمة الأطياف سهلة، لأنه لا يسعى إلى كمال أو جمال، بل يسعى لأجل السعي نفسه، كمثل الكلب يلتهث في كل حالاته. حينها كانت تظهر له

في الأطياف امرأة عجوز دميمة، ولكنها لم تكن تواجهه، بل تعطيه ظهرها مع التفات رأسها والنظر إليه بطرف عينيها وقد بدت ملامحها الدميمة، فبسبب ذلك التجاهل وعدم الالتفات الكامل له، بدت في عينيه على عكس صورتها، فظل يقضي وقته بين الأطياف وبين البحث عنها، صارت معشوقته التي نسي بها كل شيء سواها.

## (24). تحت الصفر

انحدر ثابت في الحلبة بعد أن كان من المندوبين المرموقين، وانطفأت شعلته ورغبته تماماً في العودة إلى قنديله بسبب معشوقه الجديد، حتى أفكاره ومعتقداته التسوية لم يعد لها وجود في نفسه، وأصبحت منزلته أحط من الضاحكين، يلهث وراء أطيايف تلك المرأة، متمنياً لو يجدها حتى يقع تحت قدمها عبداً يعيش بقية عمره لمرضاتها. وذات يوم رآها تتجول في الحلبة، لا يعلم أنها نفس المرأة أم مجرد شبيهة لها، لم يهتم ثابت بمحاوله تأكده من ذلك؛ غرامه سول له أنها هي، بل وأجمل منها، فكاد قلبه أن ينخلع بين ضلوعه لجمالها الذي كان في عينيه أجمل حتى من صورتها في الأطيايف، ومع تلك الهزة القلبية، تلاشى كل ما تبقى من قلبه عن قنديله الذي تحول الآن إلى أساس أوبقايا بناء، فردت عليه نفسه وأحلام يقظته بأن هذه المرأة سوف تغنيه عن قنديله وعن حتى الحلبة بصراعاتها، فكان اعتقاده كائن وفي محله.

لم ترد العجوز من ثابت شيئاً محدداً، ولكن لدمامتها فرحت برغبة ثابت تجاهها، فهي في عينيه كانت أجمل وأكمل نساء العالم، وهل تريد شيئاً أكثر من ذلك؟ لم ترض السيدة العجوز رغباته الجنسية، بل كانت علاقته بها أعمق من ذلك بكثير، فهي بالنسبة له تسد خواء روحاني كبير بداخله، فبجرد تواجده معها كان قلبه في حالة عشق وسُكر لا يوصف، لم تكن مجرد علاقة بين رجل وامرأة، بل كانت أقرب إلي علاقة بين عبد ومعبود.

صدمته تلك العلاقة بحقيقة نفسه، وعلم ثابت أن سيطرته المزعومة لا حقيقة لها، وباتت احتمالات رجوعه إلى

قنديله شبه معدومة، بالأخص بعد أن وقع قلبه على معبود يلمسه ويحسه. أحست المرأة بتردد ثابت وتغيره حيالها، مما أثار قلقها في خسارة عبد يلبي طلباتها ويشعرها بقيمتها المزيفة، فحاولت أن ترجعه إلى حالته الأولى من السكر فلم تستطع، ولكن ثابت أدرك أن أفكار قنديله التي رجعت له، ما هي إلا بسبب أن ثمة أملاً أو يأساً يطارده، وأن قنديله ما زال أساسه قائماً، فأيقن أنه بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن يهدم ما تبقى من قنديله بيديه، وإما أن يعاود بناءه وتشيد، فهذا هي زيارة أخرى إلى القنديل قد شد الرحال لها، ولكنها حتماً الزيارة الأخيرة سواء بقي هناك أو رجع.

## 25- ذهاب بلا عودة

باءت كل محاولات ثابت بالفشل، لم يستطع أن يوفق بين ما يريده عقله وقلبه حتى من بعد أن عثر على معبوده الملبوس، الذي غذى عقله وقلبه وجسده، لكنه لم يسترح ولم يهدأ قلبه، ليس لضعف تأثير ذلك المعبود في قلبه، بل لعدم كماله الذي ينكشف له كلما زاد قرباً منه. وصل ثابت عند قنديله الذي تآكل هيكله وذاب وبقي منه فقط أساسه الذي يرتفع عن الأرض شبراً أو أقل، مجرد دليل وأثر على وجود قنديل في تلك البقعة في وقت من الأوقات، مما آثار غضب ثابت وسخطه لصعوبة ترميمه -في ظنه-، ولتذكير هذا الأثر له وللناس بتحول قنديله وقلبه.

اشتاق ثابت إلى صادق كما لم يشتاق له من قبل، يسمع منه ويستقبل نصائحه لعله يخرج من عنق الزجاجة الذي يكاد أن يقتله، ولكن صادق كان يراقبه كعادته، وهذه المرة حمل مطرقة بيديه، تلك المطرقة التي وقعت عيني ثابت عليها وكاد أن يجن لما رأى فيها الحل والحسم النهائي لما راوده من قبل، لتسوية ذلك الأساس المتبقي من قنديله بالأرض، وعندها فقط ينسى قنديله تماماً، وكأن شيئاً لم يكن، ويبدأ رحلة جديدة صافي الذهن، سواء مع تلك المرأة أو أي شيء آخر غيرها.

أقبل ثابت وقد مد صادق يديه بالمطرقة من قبل أي يأتيه، أو حتى تتلاقى أعينهما، لم يتكلم أو يتناقشا، ولكن هز صادق رأسه حتى يطمئن ثابت الذي أخذ المطرقة وانطلق إلى قنديله، أو إلى ما تبقى منه، ثم جلس على صخرة



أمامه متكئاً على مطرقته، يلعن حظه، ناسياً كل جميل حدث له في حياته، كارهاً لشاكر الذي لم يقف بجانبه وهو في محتته تلك، ظناً منه أنه محور الكون، الكل يجب أن ينفذ ويسارع لدعاه، جاهلاً بحقيقة أن الكل في حرب ومجاهدة مثله، بل وأشد؛ فليس هو الوحيد الواقف في صفوف الكتيبة، ولا العالم يدور حول قنديل ثابت.

ما زال ثابت متكئاً على مطرقته والبرزخ والحلبة خلفه، وأمامه ذلك الأساس الذي يريد أن يردمه وأن لا يعود إلى ذلك المكان أبداً، ولكنه تردد بسبب التغيير المحتمل في حياته عن ذلك الفعل، والعواقب التي ما زالت مجهولة بالنسبة له. فطالما وجد ثابت صعوبة في التعامل مع التغيير وكل ما هو مجهول، وهذا هو أساس تردده الدائم الذي أدى إلى تآكل نفسه كما تآكل قنديله، وبدأ يتساءل: هل ردمه لأساس قنديله، سيوفر له الراحة التي يبحث عنها؟ هل سينتهي تردده وضعفه، عند إقدامه على ذلك الفعل الجريء؟ انتصب ثابت ممسكاً بمطرقته، ثم نظر نظرة إلى السماء وأغمض عينيه، ورفع مطرقته ملوحاً بها للخلف بكل ما أوتي من قوة.

(تمت بحمد الله)

إسلام عسل